الأمين العام لمجلس علماء العراق د. نعمان السامرائي لـ «المجتمع»:

لن يستقر بلدنا في ظل الطائفية وغياب العدالة



مفكّر إسلامي، يحمل درجة الدكتوراه في الشريعة الإسلامية من جامعة القاهرة.. غادر العراق في ستينيات القرن الماضي، ويعمل أستاذاً مساعداً في كلية الأمن في الرياض، وأستاذاً مشاركاً في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وأستاذاً في جامعة الملك سعود بالرياض، له العديد من المؤلفات والكتب، بالإضافة إلى الكثير من المقالات في الصحف والمجلات والموسوعات.. إنه د. نعمان عبدالرزاق السامرائي الأمين العام لمجلس علماء العراق.

وحول ظروف العراق الحالية، والمحن التي مرت به عبر التاريخ، ودور الأحزاب الإسلامية في الحكم، وجدوى إنشاء مجلس علماء العراق، كان لنا معه هذا الحوار:

حوار: سارة علي

• باعتباركم الأمين العام لمجلس علماء العراق، وبعد مرور أكثر من سنتين على تأسيسه، ما جدوى إنشائه؟ وماذا قدم للقضية العراقية؟

- كان لعلماء العراق منذ العهد الملكي رابطة للعلماء، وكان مركزها مدرسة السليمانية القريبة من وزارة المعارف، وظل الشيخ أمجد الزهاوي - يرحمه الله تعالى - رئيساً لها مدة حياته.. وبعد سقوط بغداد عام ٢٠٠٣م جرت محاولة لإعادة هذه الجماعة لها تحت مسمى «هيئة علماء العراق»، وتم انتخاب د. محسن عبدالحميد رئيساً لها، وقد استقال ليتفرغ لرئاسة الحزب الإسلامي العراقي، وبعد مداولات تم اختيار مسؤول ولجنة.

وكان من المؤمل أن تكون الهيئة في خدمة العلماء كمرجع للسنة وجماعة للإفتاء، لكن لوحظ طغيان الفردية في الإدارة، والاتجاه بحدة نحو إصدار بيانات سياسية والدخول في مناكفات، مما دفع أكثر من ستين عضواً إلى تقديم مذكرة تطالب بتدارك ذلك وجاء الرد حاداً وسريعاً بفصلهم جميعاً.. بعد ذلك

ضعاف النفوس من العملاء الطامعين في مناصب سياسية أو منافع مادية موجودون منذ غزو «هولاكو» إلى احتلال «بريمر»

جرت دراسة لمعالجة الوضع، فاقترح بعض العلماء حل الهيئة تمهيداً لقيام هيئة جديدة، فهناك هيئة للعلماء وحزب سياسي وهيئات للإغاثة، ومن المناسب أن تقوم كل جهة بعمل تختص به، وتم استبعاد الفكرة مخافة أن يُقال إنها جاءت بدفع من الحكومة العراقية، وطُرحت في مؤتمر عمّان فكرة بديلة بترك «هيئة العلماء» وإنشاء مجلس للعلماء، والساحة العراقية تتسع لأكثر من هيئة.

وفي المؤتمر ذاته قيل: إن هيئة العلماء تحولت إلى عمل سياسي صرف، ولم يصدر عنها من الفتاوى إلا عدد قليل لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، وكان الهدف من قيام «مجلس علماء العراق» هو تلافي ذلك.. ووقف بعض الشيوخ يطالبون بالنص على أن المجلس هيئة مستقلة لا تتبع أية جهة، وأنه لا يعمل في الحقل السياسي، وإذا أصدر بيانات سياسية فإن عدداً من الأعضاء سيقدمون استقالتهم.. ولم يكتفوا بالمطالبة الشفهية بل أصروا على كتابة ذلك ليُحفظ ويُلتزم به.

وقد وصلت الحساسية بالبعض أن يرفض انضمام بعض النواب في البرلمان العراقي إلى المجلس مع كونهم من العلماء، كل ذلك لإبعاد المجلس عن أن يكون هيئة سياسية، أو تابعاً لأية جهة سياسية أو غيرها، وبسبب هذه الحساسية الشديدة تأخر عقد المؤتمر الثاني حتى شهر رجب ١٤٣٠هـ (٢٠٠٩م).. ومعلوم أن كل مؤسسة

سياسية تواجه متاعب عند تشكيلها، وكلما حاولت الاستقلال والاعتماد على النفس زادت المصاعب والمتاعب في بلد غير مستقر، بحيث يشكل مكان المؤتمر قضية كبيرة، إضافة للتمويل المادي والإسناد المعنوي، وبحسب علمي، فإن التوجه نحو العمل داخل العراق كان الهم الأول، وقد نجح هذا التوجه.

سياسة المحتل

• يقول ابن كثير - يرحمه الله - في كتاباته: «واجتمع على بغداد الطعن والطاعون والغلاء».. برأيكم لماذا يكون حال بغداد على هذا الشكل من الأزمنة القديمة إلى يومنا الحالي؟

- ابن كثير في موسوعته «البداية والنهاية» يذكر أنه ظل سنوات يبتعد عن الكتابة حول سقوط بغداد عام ٦٥٦ هـ، نظراً لذلك السقوط المدوّي والفاجعة الكبيرة.. فالتتار تحركوا من الصين واجتاحوا كل الدول والأمم، وأشاعوا الخوف والذعر والموت، وأخيراً توجهوا إلى بغداد وراحوا يهددون الخلافة العباسية، ووجدوا من أبناء العراق من يتجسس لهم ويعاونهم، شأن كل محتل مع ضعاف النفوس الذين يطمعون في مناصب سياسية أو منافع مادية، وهذا حدث - ولا يزال - مع الغزاة القدامى والجُدد، من «هولاكو» إلى «بريمر».

حاصر التتار بغداد ٤٠ يوماً، ثم استباحوها بعد ذلك، وفعلوا ما فعلوا بها لأنها عاصمة الخلافة، فكل غازٍ يريد أن يحتل أي بلد يقوم بالتوجه إلى العاصمة، فمتى سقطت العاصمة سقطت الدولة وحل الخراب، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿... إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾(النمل).

وأفهم من الآية الكريمة أن الحاكم الأجنبي الذي يدخل بلداً يعمد إلى الناس في أسفل السلم الاجتماعي فيرفعهم، وهؤلاء يظلون على ولاء للحاكم الأجنبي لأنه السبب في صعودهم، في حين يخسف بمن كان في الأعلى، فيهبط به إلى أسفل سافلين ويستوي في ذلك «هولاكو» و«بريمر»، وكل محتل يدخل بلداً فيغير القيم والموازين، يرفع ويخفض، وعادة ما تتحمل العواصم والمدن الكبيرة ثقل وجرائم الاحتلال، أما القرى الصغيرة البعيدة فتنجو إلى حد كبير من ذلك.

تم رفض انضمام بعض نواب البرلمان إلى المجلس رغم كونهم من العلماء لإبعاده عن صبغة العمل السياسي

• بوصفكم أحد مؤسسي الحزب الإسلامي العراقي في الستينيات من القرن الماضي، كيف ترى تجربة الحزب الإسلامي اليوم في المشاركة في العملية السياسية؟ وهل هي مجدية؟

- كل حزب في أي بلد يضع في حسابه الوصول للحكم والمشاركة فيه، ومن جهة ثانية يتوقف نشاط الحزب على قبول الحكومة المعارضة، وتداول السلطة، والمشاركة في القرار السياسي، فالمعارضة تطارد الحكومة، وتراقب أداءها، وتتصيد أخطاءها، والحكومة تحاول تسيير أمور الدولة، وتكون حكماً في المنازعات بين القوى السياسية الأخرى.

ويلاحظ مثلاً أن حزب البعث في العراق كان معارضاً نشطاً، وقد تمكن من الوصول إلى الحكم ثلاث مرات، لكنه احتفظ بأسلوب المعارضة طوال حياته حتى احترف تصفية المعارضين ومطاردتهم داخل العراق وخارجه، مما جعل المعارضة تصل إلى قناعة بصعوبة العمل أو تغيير النظام، فحملها هذا على التحالف مع الولايات المتحدة لتغييره بالقوة ليأسها من إمكانية التعايش أو التغيير..

فالأحزاب أياً كان توجهها تتعامل مع الحكومة وفق سياسة الحكومة بقبولها أو رفضها، بالسماح لها بالعمل والفاعلية أو تحويلها لمجرد ديكور، وتبقى فاعلية الحزب ومعرفته بمتطلبات اللعبة السياسية وخبرته، ويُلاحظ أن الحاكم لا يسره ولا يرضيه وجود قوة فاعلة سوى قوة الشرطة، فلا يريد معارضة قوية، ولا نقابات، ولا حتى جيشاً قوياً، وبالتالي فهو يحاول إلجامها وحصرها قدر المستطاع، وهكذا تبقى الأحزاب الإسلامية وغيرها غير مقبولة، وإذا كان لابد منها فلتكن ضعيفة هزيلة، متابعة محاصرة، وكل بضعة أشهر يتم اتهامها بمحاولة القيام بانقلاب لا أساس له ولا واقع، إلا إذا وجد داعماً «خارجياً» يفرض الحماية.

العواصم والمدن الكبيرة عادة تكثر فيها جرائم الاحتلال أما القرى الصغيرة البعيدة فتنجو إلى حد كبير منها

بلد الفتن

• وفق قراءة للتاريخ القديم والمعاصر للعراق، هل ما يحدث فيه الآن هو الفتنة الحقيقية؟ وهل هناك بوادر أمل لانفراج هذه الفتنة إن وُصفت كذلك؟

- يُلاحظ أن العراق كان يسوده القلق بشكل عام، والاستثناء كان الهدوء، فمنذ بداية الحكم الإسلامي وفي خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه راح العراق يتململ ويطالب بصرف الولاة، حتى سجل في ذلك سابقة لم يشاركه فيها قطر عربي، فمن المطالبات الشاذة أن يطلب العراقيون إقالة فاتح العراق سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بحجة أنه لا يحسن الصلاة، ومنعوا الولاة قبل أن يصلوا البلد.. وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه كلما رشح والياً رفضه العراقيون، ويبدو أنهم استمروا في ذلك وألفوه حتى ابتلاهم الله بالحجاج بن يوسف الثقفي ليحكمهم وفق «قانون الطوارئ» دون سواهم من المسلمين.

وفي العصر الحديث عاش العراق القلق أيضاً، فكان ساحة اقتتال بين الصفويين والعثمانيين، واستمر هذا القلق حتى احتلال بغداد عام ٢٠٠٣م، فكان المحتلون يطمعون إلى جعل العراق ثلاث دول، كما ورد في رؤيا «يوحنا» في آخر الأناجيل (حسب زعمهم)؛ حيث ورد تقسيم بابل إلى ثلاثة أقسام، وقيل إن ذلك مقدمة لعودة المسيح عليه السلام.

وقام المحتل بإجراءات فردية، فحل الدولة والجيش والشرطة، وأشعل الطائفية عن طريق «المحاصصة»، لذا عرف العراق الصراع والقتل على الهوية، كل ذلك يجعل القلق مبرراً ومشروعاً، ولن يستقر العراق دون عدالة وتسامح، فالدول لا تقوم على الثأر ولا على تأجيج العداوة، ولا على الكره واحتقار الآخرين.■